بريطانيا العظمى

الأستاذ أبو الفتوح عطيفة

عتاب :

أخذ على بعض الأصدقاء من القراء الكرام أنني في هذا الوقت الذي نقف فيه بريطانيا ضد أمانينا القومية وحريتنا قد امتدحت الخلق البريطاني؛ بل إنني أفضت في الثناء على البريطانيين وكان العكس أوجب . وقد سرني عتابهم هذا ولكني وجهت إليهم السؤال التالي : « أتعتقدون أن البريطاني غير مخلص لوطنه ؟ وهل تشكون في تضحيات البريطاني من أجل وطنه ؟ فكان الجواب بالنفي . قلت « إن بريطانيا عظيمة لأن أبناءها مخلصون لها . » وإذا أردنا نحن أن نسود في أوطاننا وأن نسترد ماضي مجدنا فعلينا أن نقوى عزائمنا وأن نوحد صفوفنا وأن نقبل على التضحية كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا

وأمر آخر أحب أن ألفت النظر إليه، وهو أنه ليس من الخير لنا أن نتغاضى عن عيوبنا ، وأن نتجاهل أسباب قوة أعدائنا ، فيكون مثلنا كمثل النعامة التي تخفي رأسها وقت الخطر وتعتقد أنها بهذا قد أصبحت آمنة

وأمر ثالث أحب أن أذكره ؛ وهو أن هذه المقالات تتسم بسمة البحث العلمي ، والبحث العلمي يجب أن يكون بعيدا عن الأهواء الوطنية والعواطف السياسية، ومن ثم فأرى لزاما علي أن أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؛ وإذن فيجب علي أن أمتدح البريطانيين حين يستحقون المدح، وأن أهاجمهم أشد الهجوم حين يستحقون ذلك . ولا يستطيع إنسان كائنا من كان أن ينكر عدوان بريطانيا علينا واحتلالها لأراضينا وعملها على فصل جنوب الوادي عن شماله ، وتشريدها لعرب فلسطين بمؤازرتها لليهود ، ولكني أحب أن أقول لقومي :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وأنا أعد حضرات القراء بأنني قبل أن أختم مقالاتي عن بريطانيا سأعقد فصلا خاصا عن علاقتنا بها وكيف يجب أن تقوم

مشكلات

ولعل حضرات القراء يوافقونني على أننا متخلفون عن ركب الحضارة قرنا كاملا ، وأننا في عصرنا الحاضر نواجه مشكلات واجهتها الأمم الأوربية في القرن التاسع عشر وتغلبت عليها . ولعل من الخير لنا أن نعرف كيف تغلبت أوربا على هذه المشكلات حتى ننتفع بتجاربها ونستفيد منها

تنقسم المشكلات التي نواجهها إلى قسمين : ١ : مشكلات سياسية وقومية وأهمها الوحدة والجلاء، وسأتناولها بالبحث حين أتحدث عن ألمانيا وإيطاليا

٢ : مشكلات اقتصادية واجتماعية وهي ناشئة عن دخول مصر في الدور الصناعي ، وسأتناول فيما يلي البحث في الانقلاب الصناعي في إنجلترا والمشاكل التي قامت بسببه وكيف عالجتها وتعالجها إنجلترا

الانقلاب الصناعي :

يقول أحد المؤرخين « إن الناس قد ظلوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يفلحون أرضهم وينسجون ملابسهم وينشرون أخشابهم ويصنعون قواربهم كما كان يفعل قدماء المصريين . » وهذا القول صحيح من غير شك ؛ ولكن الجزء الأخير من القرن الثامن عشر قد شاهد انقلابين خطيرين وخطرين جدا ؛ وهما في الواقع أساس الحضارة الحديثة

من الاسم بنحو خيم القوم : ضربوا خيامهم . كذلك وزن « استفعل » الدالة فيه الزيادة على الطلب ، فإنه يستعمل أيضا لوجدان الفعل . نحو استعظم الأمر : وجده عظيما . وللتحول، نحو استحجر، وللتكلف ، نحو استجرأ . وللمطاوعة ، نحو أراحه فاستراح ، وأخيرا يرجع إلى نحو المجرد عينه كأنه لم تكن زيادة. نحو استقر بمعنى قر ، وقس على ذلك بقية الزيدات ، تلك التي تدعى قياسية بتخصيص دور الحرف المضاف إليها

البقية في العدد القادم الأديب مرسي الدوسيقي

أما الانقلاب الأول فهو الثورة الفرنسية ، فهذه الثورة هدمت الأنظمة السياسية والاجتماعية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وأقرت الحرية والإخاء والمساواة فى الحقوق والواجبات للناس جميعا ، وكذلك أقامت مبدأ سيادة الشعوب إذ قررت أن الأمة مصدر السلطات . وهكذا بدأ قيام الديمقراطية الحديثة

أما الانقلاب الثانى فهو الانقلاب الصناعى ، وهذا الانقلاب ليس أقل تأثيرا فى حياتنا المعاصرة من الانقلاب الأول ، بل ربما كان أعظم منه أثرا وأشد خطرا . ذلك أنه فى الوقت الذى كان رجال الجمعية الوطنية فى فرنسا يثيرون اهتمام الناس بخطبهم ومبادئهم الجديدة ، وفى الوقت الذى كان نابليون يشغل أذهان الأمم والدول بحروبه ومعاركه ، كان هناك رجال يوجهون اهتمامهم إلى المرأة التى تدير المنزل فى منزلها ، وإلى النساج الذى يحرك نوله فى بطء ، وإلى عمال الناجم وهم يكافحون المياه التى توشك أن تغمر مناجمهم ، وقد ظل هؤلاء الأبطال فى جهادهم حتى اهتدوا إلى اختراعات غيرت أساليب الصناعة وبالتالى غيرت مجرى حياة الإنسان . وقد كان أهم هذه الاختراعات من غير شك استخدام البخار فى إدارة الآلات وفى تسيير القطارات والسفن البخارية

وقد كان من أهم نتائج هذه المخترعات انتقال الصناعة من المنزل إلى المصنع ، وانتقال المصانع إلى المواطن التى يكثر فيها الفحم والحديد ، فإن من الحديد تصنع الآلات ، وبالفحم تسير هذه الآلات

وفيما يلى أهم نتائج الانقلاب الصناعى :

١ : نمو مدن مزدحمة بالسكان : ذلك أن الصناعة وقد انتقلت من المنزل إلى المصنع تركزت فى مناطق الفحم مما أدى إلى هجرة كثيرين من العمال الزراعيين إلى المراكز الصناعية ، وقد أغراهم زيادة الأجور نسبيا فى المصنع عنها فى المزارع

٢ : أدى هذا إلى نقص كبير فى الأيدى الزراعية العاملة ، وقد حلت هذه المشكلة باستخدام الآلات الزراعية الحديثة

٣ : سوء حالة العمال فى المناطق الصناعية بسبب قلة أجورهم وسوء مساكنهم وانتشار البطالة بينهم وإرهاقهم بالعمل

٤ : ظهور طبقات رأسمالية كانت تملك أربابها المصانع والآلات ، وقد عمد هؤلاء الرأسماليون إلى استغلال العمال فى تنمية أموالهم وزيادة أرباحهم ، ولم يلبث هؤلاء طويلا حتى نافسوا كبار الزراع والتجار فى ميدانى الحياة السياسية والاجتماعية

٥ : زيادة الإنتاج مما أدى بدوره إلى نشاط التجارة ، فمثلا كانت تباع منسوجات منشستر فى ملبورن وفى الصين وفى غيرها

٦ : تحسن طرق المواصلات والنقل

٧ : تسابق الدول إلى الاستعمار لتضمن موارد المواد الخام والأسواق

٨ : ظهور نهضة فكرية رائعة ، وزيادة الاتصال بين أنحاء العالم ، وظهور آراء اقتصادية حديثة أهمها مبدأ حرية التجارة الذى نادى به آدم سميث فى كتابه « ثروة الأمم »

٩ : وجدير بى أن أذكر أن إنجلترا كانت أسبق الأمم إلى الانقلاب الصناعى لأسباب : أهمها زوال النظام الإقطاعى منها قبل غيرها ، وثانيا لأنها استطاعت فى أثناء عصر الثورة الفرنسية ونابليون أن تسيطر على أسواق العالم التجارية ، ولذلك عملت جاهدة بعد انتهاء هذا العصر على الاحتفاظ بسيطرتها التجارية على هذه الأسواق

١٠ : ازدياد عدد السكان فى إنجلترا زيادة خطيرة

الاشتراكية :

على أن أخطر نتائج الانقلاب الصناعى كان ظهور الاشتراكية ، فقد قاسى العمال أهوالا كثيرة بسبب قلة أجورهم وازدحامهم فى المراكز الصناعية وسكناهم فى مساكن غير صحية واضطرارهم إلى العمل ساعات طويلة مضنية داخل المصانع ، مما دفع كثيرا من المفكرين إلى العمل على وضع حد لإرهاق العمال وتحسين حالتهم

وقد نبتت الفكرة الاشتراكية فى رأس بعض رجال الثورة الفرنسية ، وأنا أحب أن أنقل هنا ما قاله أحد رجالها واسمه بابيف Babeuf فقد ذهب إلى أن الطبقات الفقيرة لا يهمها أى تغيير بقدر ما يهمها أن توفر لها أسباب الحياة الكريمة حيث

قال : « عندما أنظر إلى الفقراء فأجدهم محرومين من الكساء والأحذية التي يقومون بصنعها ، وعندما أنظر إلى تلك الفئة القليلة العدد التي لا تعمل ، ومع هذا فهي ليست في حاجة إلى شيء لأن كل شيء ميسر ، أومن أن الحكومة إن هي إلا مؤامرة قديمة قامت بها الأقلية ضد الأغلبية . »

واقترح أن تستولي الحكومة على الأراضي وموارد الثروة ، وأن تعمل على استغلالها لمصلحة الشعب وطبقاته جميعا

ورغم إعدام بابيف فقد ظلت مبادئه حية في أذهان الفرنسيين لدرجة أن بعض أتباعه نادوا بها من جديد عند قيام ثورة يولية ١٨٣٠ في فرنسا . وقد أذيعت هذه المبادئ في إعلانات طبعت ١٨٣٢ جاء فيها :

« إننا لا نريد انقلابا سياسيا وإنما نريد انقلابا اجتماعيا . إن التوسع في الحقوق السياسية وفي الحقوق الانتخابية وفي إقامة حق الاقتراح كلها أشياء جميلة ؛ ولكن غايتنا الرئيسية أن يكون هناك توزيع عادل لأعباء ، الدولة ولما يجنيه أبناؤها من فوائد . إننا نبغي إقامة حكم عادل يكفل تحقيق المساواة لجميع أبناء الدولة . »

وقد كان من أبرز زعماء الاشتراكية في النصف الأول من القرن التاسع عشر روبرت أوين الأنجليزي ولوي بلان الفرنسي ، ولكن « كارل مركس » الألماني يعتبر واضع الاشتراكية الحديثة

ولد كارل ماركس ١٨١٨ وتربى في جامعتي بون وبرلين ، ولكنه نفي من وطنه بروسيا (ألمانيا) بسبب آرائه الحرة ، وفي منفاه وضع كتابه « رأس المال The Capitale » وأهم الآراء التي جاءت فيه :

١ : إن طبقات الأمة المحظوظة هي التي قبضت على الحكم في الماضي ، وإن طبقة الملاين والرأسماليين من أصحاب المصانع هي الطبقة المحظوظة الحديثة ، أما العمال فهم ضحايا الرأسماليين . وتنبأ ماركس بأن طبقة العمال سيقوى نفوذها حتى تصبح الطبقة الحاكمة ، وعندئذ تقوم الدولة الاشتراكية . (لاحظ أن رئيس وزراء بريطانيا الآن هو زعيم حزب العمال !)

٢ : كان العمال حينذاك محرومين من حق الانتخاب ، وقد تنبأ ماركس بأن العمال سينالون حقوقهم الانتخابية وسيصبحون نوابا ، وحينئذ يصبح في مكنتهم إصدار التشريعات اللازمة لمصلحتهم ، وأهمها أن تضع الدولة يدها على موارد الثروة ووسائل الإنتاج مثل المناجم والمصانع ووسائل النقل والأراضي الزراعية ، وتستغله لمصلحة الشعب وهو ما يعرف الآن بالتأميم . وجدير بنا أن نلاحظ أن حكومة العمال تعمل على تحقيق ذلك في بريطانيا

٣ : عدم وجود فوارق اقتصادية بين الطبقات ، وقد تساءل ماركس « لم يدخل الحياة طفلان أحدهما له امتياز على الآخر ؟ أحدهما يملك المزرعة والضياع والمصانع ، والآخر لا يملك سوى نقير ؟ »

٤ : استنكر ماركس أن يعيش بعض الأفراد عالة على الشعب ، وقرر أن جميع الأفراد يجب أن يؤدوا عملا للدولة ، وألا يكونوا عالة على المجتمع

٥ : يجب أن تسيطر الأمة على رءوس الأموال

٦ : يجب أن يكون التعليم بالمجان لجميع أبناء الدولة

وقد انتشرت هذه المبادئ في أنحاء أوربا وكان لها أثر كبير في الحياة الأوربية المعاصرة . فقد آمنت بها إنجلترا فنال العمال حق الانتخاب ، ثم أصبح منهم النواب وتولوا حكم بريطانيا . ومن غير شك تعمل حكومة العمال على تحسين حالة العمال وعلى تقليل الفوارق بين الطبقات ، فنراها تفرض الضرائب التصاعدية التي قد تصل إلى ٩٥ ٪ من دخل بعض الأفراد ، ونراها تعمم نظام التأمين الصحي والاجتماعي ، وتيسر التعليم لجميع أبناء الشعب ، وتعمل على تأميم موارد الثروة والإنتاج ، ولا عجب فإن حزب العمال يؤمن بأن « الغرض الحق من المجتمع هو أن يرفع ويحفظ كرامة ورفاهية الفرد » وبأن من حق العمال على الدولة أن يعيشوا كراما

أبو الفتوح عطيفة
مدرس أول العلوم الاجتماعية
بسمنود الثانوية